نهارات الحصار وليالِيه

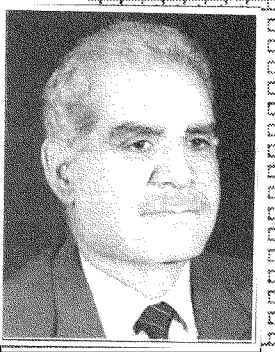

ناطق خلوصي
(قاص وروائي)

في الليالي القصيّة، كانت جدّاتُنا يحكين لنا حكايات السِّعالي والغيلان. ولشدّ ما كان يُفزعنا الحديثُ عن ذلك الغول الأسود العملاقِ الذي كان مهووساً باختطاف الفتيات: ينتزع قلوبهنّ وأكبادَهنّ ويتسلّى بمضغها.

وحين تفتّح وعيُنا، صرنا نسخر من تلك الحكايات، وصار في يقيننا أنه لم يكن ثمة من وجودٍ لذلك الكائن المخيف إلاّ في مخيّلة رجل مثل «خرافة»: ذلك العُذَريِّ الذي كانَ يزعم أنه على اتصالٍ بالجن، حتى شاع قول: «حديث خرافة» عنه. ولعلّ حديث الغول انتقل عبر الألسنة من جيلٍ إلى جيل، حتى حطّ في أسماع جدّاتنا ومخيلاتهنّ فيما بعد.

غير أننا منذ ثماني سنوات أدركنا أننا كنّا على وهمٍ فيما ذهبنا إليه. فثمة وجودٌ حقيقيٌّ لغولٍ معاصرٍ ومتحضّرٍ حتى العظم: غولٍ بأنياب من حديد اسمُهُ «الحصارُ». ولا أحسبنا نغالي حين نستعير الغول من مخيّلة الماضي ونستلّه من أزمنته السحيقة، ونجيء به إلى عصر الإنترنيت والفضائيات والاستنساخ البايولوجي وغزو الكواكب، ونجعله رديفاً للحصار. إنّ «كلّ ما اغتال الإنسانَ فأهلكه فهو غول»، كما تقول المعاجمُ العربية، وها إنّ الحصار يغتالنا كلّ يوم منذ ثماني سنوات. وإذا كان العربُ قد قالوا قديماً: «أيّة غول أغوَلُ من الغضب»؟ فإنّ من حقّنا أنْ نقول الآن: «أيّة غول أغوَلُ من الحصار؟!»

قبل أن نقع بين فكّيْ غول الحصار تماماً، وَقَعنا في أتون الحرب، ولأربعين يوماً عجاف كان الموت يختبئ في حدقات عيوننا، أو نتنفّسه مع الهواء المحمّل برائحة الدم والبارود والدخان والغبار. كنّا، تحت قصف الصواريخ التي تبدو أرحمَ من مُطْلقيها حين تُخطئ هدفَها أو تُضلّ طريقَها أو تستسلمُ للمقاومات الأرضية، نلوذُ بالجدران التي لا ندري في أيّ لحظةٍ تهوي علينا وتهرسنا لحماً وعظماً. وكان أطفالُنا يلوذون بنا مذعورين، ونحن نرتجف مخافةَ أن نضعف أمامهم فنسقط في عيونهم، وكنّا نحاول أنْ ننتخي بكلّ ما في أعماقنا من قدرة على التحمّل والمكابرة أيضاً لكي لا يحدث ذلك. وفي الليل كنّا نضع على وسائد القلق رؤوساً محشوّةً بالهواجس، وكان يستبدُّ بنا الأرقُ، وتشرِّق بنا المخاوفُ وتغرِّب. وما إنْ تسرقنا إغفاءةٌ قصيرةٌ في غفلة من الأرق، حتى تنتزعنا منها موسيقى الموت وهي تُعزَف بإيقاعٍ صاخبٍ يتداخل فيه دويُّ الانفجارات وأزيزُ الصواريخ وفحيحُ ثعابين الجو وعويلُ صفّارات الإنذار.

خرجنا من ذلك الأتون الدمويّ، ولا ندري كيف، ليتلقّفنا غولُ الحصار ويبدأ باستنزاف النُسْغ الحيّ الصاعد في أرواحنا على أمل أنْ يكسر شوكةَ هذه الأرواح. نهارٌ يجرُّ نهاراً، وليلةٌ تجرُّ ليلةً. سلسلةٌ طويلةٌ متصلةٌ من النهارات والليالي تمتدّ نحو المجهول. أكثر من ثلاثة آلاف نهار وأكثر من ثلاثة آلاف ليلة، ونحن نعايش هذا الغول، ولكننا نقاوم. وإذا كنا لم نَمتْ حتى الآن فذلك لأنّ إرادة الحياة فينا أقوى.. أو هكذا نزعم.

لقد كنّا، نحن الذين تشدّنا إلى الكلمة أصرةُ وَجدٍ وتربطنا بها وشيجةُ دمٍ، نشعر بأنّ الحصار يسعى إلى أن يسحق كلّ زهور الأمل المتفتّحة في حدائق تطلّعاتنا، ويسدّ كلّ منافذ الحياة المفتوحة أمامنا، ويسجنَ أحاسيسنا التي يُريد لها أن تصبح مرهَفَةً بدلاً من أن تكون مرهَفَةً. ولو أنّ في مقدور

الذين يحاصروننا أنْ يصادروا نسمة الهواء التي نتنفّسها، لفعلوا ذلك دون أن يرفّ لهم جفنٌ.

لا أذكرُ طوال سنيّ حياتي أنْ رافقني الحسُّ المأساويُّ بإلحاح مثلما رافقني، وما يزال، في ظلّ الحصار. لقد ظلّ إحساسي بالمأساة، مأساتي إنساناً وكاتباً، يَكْبرُ عبر نهاراتِ الحصار ولياليه، حتى استحال كابوساً ثقيلاً لم أُفِقْ منه حتى الآن، على الرغم من أنني أحاول أن أَخْدع نفسي بخلاف ذلك. لقد بلغتْ هذه المأساةُ ذروتَها عندي في مدخل العام السادس للحصار. ففي حين يتلقّى الناسُ الهدايا في الأعياد، فإنّ غولَ الحصار منّ عليَّ بهديةٍ فاجعةٍ حين اختَطَفَ زوجتي في فجر ثاني أيام عيد الفطر من ذلك العام. وإنني لأراه الآن وهو ينتزع قلبَها أمامي ويتسلّى بمضغه ويرمي ضحكةَ شماتةٍ في وجهي. لولا غولُ الحصار لما رحلتْ ذلك الرحيلَ الفاجع. أتمثّلها جسداً مسجًى على سرير المستشفى حيث لا دواءٌ ولا علاجٌ. ألْهث من شارعٍ إلى شارع ومن مكانٍ إلى مكان وأنا أبحث عن صيدليةٍ يتوفّر فيها علاجٌ قد يفيدها، وقد لا أجده أو أجده بعد طولِ عناءٍ فيضيء بصيصُ الأمل في روحي وأركض به إلى المستشفى، لأكتشف أنّ مفعوله منتهٍ منذ زمن. لكنني مع ذلك أظلّ متشبّثاً ببصيص الأمل المرتعش في روحي، تَشَبُّثَ الغريق بقشّة، وألحّ على إعطائها ذلك العلاجَ لعلّ فيه بقيةً من رحمة. لكنْ سرعان ما يتسرب الأملُ مثلما يتسرّب الماءُ من بين الأصابع. ثم أراها جسداً مسجًى على فراش الموت، وبعد ذلك أراها تُنازِع، وعندها يتراءى لي غولُ الحصار يمدّ مخالبه وينتزع منها الروح.

نهارات الحصار طويلة، ولياليه أطول. لكننا ـ ويا للتناقض ـ نحسّ كأنّ السنواتِ تركض بنا.. تركض بنا على عجلٍ مثل خيولٍ لم يستبدّ بها التعبُ بعدُ. يتوزّع هذا الحصارُ عندي بين دوّامة العمل، والدورانِ اللاهثِ في دائرة التفاصيل الحياتية الصغيرة، أو الهروبِ إلى المقهى لساعةٍ أو بعضِ ساعة، أو التحول في شارع المتنبي ـ شارعِ الثقافة ـ الذي يشهد أفظعَ مذبحةٍ معاصرةٍ للكتب. وعلى الرغم من أنني لم أُفرّط بكتابٍ حتى الآن، فإنّ ثمة مَنْ فرّط ـ مضطراً ـ بمكتبةٍ كاملة، فيها من الكتب ما سَفَحَ دَمَ قلبه ثمناً للحصول عليه وإذا به ينتهي ملقًى على الرصيف معروضاً للبيع بثمنٍ بخس. ويا لمحنة الكاتب حينَ يغادره كتابٌ عزيزٌ عليه ولا يعود!

أمّا ليلُ الحصار الطويل فإنه يتيح لي فرصةَ الهروب إلى ملاذي الآمن: الكلمة، حيث أقرأ أو أكتب بهدوءٍ خادع. وقد يخذلني نورُ الكهرباء حين يهرب، فيتركني وحيداً في مواجهة ظلامٍ دامسٍ لا أجد ما أقاومه به إلاّ بصيصَ ضوءٍ يومض في أعماقي.

في نهارات الحصار ولياليه أُحسّ أنّني معزول عن حركة الثقافة التي لم تتوقفْ خارج حدود بلدي؛ فما يصلنا من كتبٍ ودورياتٍ قليلٌ، وبعضُهُ صادرٌ قبل سنوات. وحين يصدف أن يقع بين يَدَيْ أَحَدِنا كتابٌ جديدٌ تتلقفه وتتناقله يدٌ من يد. وأذكر أنني قضّيت أكثرَ من عشرين ساعةً متواصلةً في صحبة كتاب لم يكن مسموحاً لي أن أُبقيه عندي لأكثر من يوم واحد، ولذلك لم أضعه جانباً حتى فرغتُ من قراءته. وحين تقع بين يديَّ مجلةٌ باللغة الإنجليزية صادرةٌ في الخارج، أشعر كأنني عثرتُ على لقيةٍ ثمينة، فأُسارع إلى ترجمةِ ما يستفزّ اهتمامي فيها ويفيد غيري، وأسعى إلى نشره بهدف توسيع دائرة الاستفادة منه.

وأعترف بأنني، وأنا في خريف العمر، صرتُ أبدو وكأنّ الدموع تختبئ تحت جفوني وتنتظر ما يستفزّها، وما أكثره! ولماذا لا يبكي الرجالُ؟ كيف لا تبكي وأنت ترى المأساةَ الفاجعةَ تتجسد أمام عينيك كائناً حيّاً يتحرك، تُحسّ به وتلمسه وتشمّ رائحته؟ كيف لا تبكي وأنت ترى لافتات النعي السود وهي تتراصف على الجدران؟ أو وأنت ترى صور الأطفال الذين يولَدون مشوّهين أو يموتون أمام عدسات التلفزيون؟ أو صورَ الأمهات الفزِعات وهنّ ينظرن إلى أثدائهنّ وقد جفّ فيها الحليبُ؟ كيف لا تبكي وأنت ترى مواكبَ جنائزِ الأطفال الشهداء وهي تمرّ ملتفّةً بالأكفان؟ وكيف لا تبكي حين يرنّ جرسُ باب بيتك فتخرج لترى شيخاً وَقُوراً وهو يمدّ إليك، على استحياء، يداً مرتعشة متوسّلاً ما يسدّ به جوعه؟

يقيناً أنك حين تبكي فإنما لا تفعل ذلك عن ضعف. ذلك أنّ مَنْ يبكي فيك إنما هو الإنسانُ الرقيقُ، الحسّاسُ، المتلئ بروح الإبداع، الذي يستفزّه وقعُ المأساة... ولا يبكي فيك الإنسانُ الآخر: الصُّلبُ، العنيدُ، الذي لا يخشى الموتَ. وليس غريباً أن تحملهما معاً في أعماقك.

اعذروني إذا ما قلت إنني، بعد ثماني سنوات من الحصار، وبعد نوبات حربٍ هستيريةٍ متكررة، أكاد أكفر بمقولة ماركس: «الإنسان أثمن رأسمال». فأيُّ رأسمالٍ ثمينٍ هذا الذي يُقذَف به بين فكّيْ غولٍ شرسٍ على مرأى ومسمعِ عالمٍ متحضّرٍ يقف على عتبةِ قرنٍ جديد؟ □